بمناسبة احتفالات بغداد - الكندي

ادباء

بغداديون في الأندلس

الدكتور محمد جمال الدين
استاذ الادب الاندلسي
كلية الاداب - جامعة بغداد

منشورات - مكتبة النهضة - بغداد

ادباء
بغداديون
في الاندلس

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

بمناسبة احتفالات بغداد - الكندي

ادباء
بغداديون
في الأندلس

الدكتور محسن جمال الدين

استاذ الادب الاندلسي

كلية الاداب - جامعة بغداد

منشورات - مكتبة النهضة - بغداد

دار التضامن للتجارة والطباعة والنشر - بغداد

PJ
7530
.J3

حقوق الطبع والنشر
محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة الاولى

١٩٦٢ - ١٩٦٣

الاهـداء

الى مدينة بغداد

في ماضيها الخالد ـ وحاضرها الزاهر
ومستقبلها الباسم ·

والى أرواح العلماء العراقيين

الذين توسدوا تربة الاندلس ـ فعاشوا
هناك بأجسامهم وظلوا معنا بأرواحهم ·

أهدي هذه الدراسة المتواضعة ؟

محسن

تشرين أول ١٩٦٢
بغداد

تصدير

من عظمة (بغداد) وخلودها ، أن لها في التاريخ مكانة ، ولها في القلوب محبة ، وفي الاحلام صورة •

فهي موطن العلماء ، ومنبت الفقهاء ، وندوة الادباء ، يعشقها من عاش فيها ، ويحن اليها من بعد عنها • حتى ولو كان قاليا لها ، أو ناقما عليها[1] •

آها على (بغدادها) وعراقها وظبائها والسحر في أحداقها
ومجالها عند الفرات بأوجه تبدو أهلتها على أطواقها
متبخترات في النعيم كأنما خلق الهوى العذري من أخلاقها
نفسي الفداء لها فأي محاسن في الدهر تشرق من سنى اشراقها(٢)

في قصورها وشوارعها ، وفي بيوتها ومناهجها ، تمثلت رويات « ألف ليلة وليلة » السحرية • فهي مدينة قد ضمنت المتناقضات ، وحوت المفارقات ، كان فيها غنى مترف ، وفقر مؤلم •

---

(١) في تاريخ الخطيب البغدادي • وفي طبقات الشافعية والاغاني وغيرها من المصادر القديمة الوفرة من جلة العلماء ، والادباء ـ والفقهاء ـ والشعراء ، الذين أنبتتهم بغداد ، أو ضمتهم الى حضيرتها •

(٢) الابيات (لقمر) جارية ابن الحجاج التي جلبت له من بغداد / القرن الثالث الهجري تراجع في أعلام النساء ط١ / ١٩٤٠ دمشق ج٣ عمر رضا كحاله ص ١٢٩٨ •

مر عليها علم نير ، وجهل مظلم ، مرت عليها أطياف السعادة ، واشباح الشقاء ، ولقد ظلت دوما (دار السلام) الحبيبة !!

أنبتت تربتها أزاهير العبقرية ، واحتضنت معاهدها نوابغ الاساتذة والطلاب ، بقيت وهي شامخة البناء ، عالية المجد ، تشع منائرها ومعابدها العلم والمعرفة . وطبيعي ان يكون لها الاحترام ، وتظل لها المكانة .

هذا وفي دراستنا للعلاقات الثقافية بين (بغداد) و (الاندلس) . وجدنا ان بين البلدين صلات ثقافية واقتصادية ، استمرت عدة قرون . حتى ولو شابها أحيانا جو سياسي مدلهم . ولكن صلات العلم والثقافة ، وروابط الاسلام والعروبة ، لم تنفصل حلقاتها ، ولم تضعف مودتها .

فالعلامة (الحميدي) و (الفرضي) و (ابن سعيد المغربي) و (ابن جبير الكناني) ، وغيرهم ، رأوا هذه البلاد فوصفوها ، وسجلوا خواطرهم وانطباعاتهم عنها . وتلقى بعضهم العلم على يد اساتذتها ومعاهدها . أمثال (شرف الدين المرسي) ٥٧٠هـ-٦٥٥هـ (وجابر بن محمد الواد آشي) ٦١٠هـ-٦٩٤هـ [١] .

كما ان الاندلس استقبلت خلال القرنين الثالث والرابع الهجري - طبقة مرموقة من أبناء العراق - والمنتسبين الى مدينة (بغداد)[٢] .

ومن هذا الفيض الزاخر اخترت ثلاثة من اللامعين الذين أثروا في هجرتهم هناك ، وفي حياتهم في الاندلس على المجتمع الاندلسي . وهم :

١ - (أبو علي القالي البغدادي) - كعالم - ولغوي - واستاذ له منهج علمي في محاضراته بجامع (قرطبة) أوجد طبقة عالية من العلماء والادباء والشعراء في تلك البلاد .

---

(١) راجع : تاريخ علماء المستنصرية - للاستاذ ناجي معروف ط١/١٩٥٩-١٣٧٩ بغداد ص٣٣٠ الملحق السابع .

(٢) لنا دراسة مفصلة (عن العلاقات الثقافية بين الاندلس والبلاد العربية) وفي المكتبة الاندلسية B. A. H. تراجم العلماء الوافدين على الاندلس والمغادرين لها .

٢ - (ابن زريق البغدادي) : شاعر تغنى بالكرخ ومطالع البدور فيه ولم ينس بغداد مدينته في يقظته وحلمه ، وغربته[٣] .

٣ - (زرياب المغني) تلميذ اسحق الموصلي الذي وضع نظام الموسيقى والغناء للاندلسيين ، مع التقاليد البغدادية .

ان الشخصيات الثلاث الذين جعلناهم مدار حديثنا ، وموضوع دراستنا ، انما هم جزء من تلك الفئات الكثيرة التي دخلت الاندلس ، فاستقرت بها ، أو عادت منها .

وهؤلاء في الحقيقة خلفوا وراءهم دويا ، وتركوا لمجدهم أثرا ، ولحياتهم صورة . لانهم خالدون ، ولانهم ادباء بارزون . والشاعر يقول :-

والعظيم العظيم من مهر التاريخ   بالطيبات من أعمالهْ
لا الذي عاش في الضلال وخلّى   لعنات الاجيال خلف ظلالهْ

× × ×

كم وددت أن أتبسط في دراسة هؤلاء الرجال ، وأتوسع في تحليل شخصياتهم ، ونفسياتهم ، وأدبهم ، وأتتبع خطاهم منذ مولدهم حتى وفاتهم ، ولكنني خشيت الاطالة على اننا لا نبخل بتطرق آخر ندرسهم فيه دراسة مستفيضة .

لان الموضوع الطريف لا يفقد جدته بانتهاء مناسبته ، فهو كالجمال الاصيل ، وكالمعنى الجميل ، يظل أثره باقيا في النفس في كل وقت ، ولذته مستمرة في الروح في كل حين !!

وبمناسبة (احتفالات بغداد - الكندي) قدمنا هذه الدراسة وهي في الحقيقة جزء مما يجب علينا كمثقفين تجاه بلادنا وأدبنا ورجال الفكر عندنا ، في تاريخنا العربي المجيد ، قديمه وحديثه .

أما حصة (المرأة البغدادية) فلسنا نجحد لها مكانة ، ولا نغبط لها حقا ، اذ اننا سنخصها بدراسة مستقلة حينما ودعت وطنها العراق ، ومسكنها

---

(٣) ستكون لنا دراسة مستقلة عن (ابن زريق البغدادي) .

الزوراء . وعاشت في الاندلس . أديبة ، وشاعرة ، ومطربة .

تلك هي النتيجة لهذه الدراسة . أما المقدمات عن بحثها ، والجهود التي صرفت عليهـا ، فنتركه للـذين يقرأون الحقـائق المجـردة ، من الاغراض والغايات في وقتنا الحاضر ، وللازمان القادمة .

لان الناس كما قالوا : يريدون النتائج ولا يسألون عن المقدمات .

هذا مجهود بسيط ، أرجو قبوله ، قمت به احتراما (لبغـداد) وتقديرا لعظمتها وخلودها .

بغـداد ــ كلية الاداب **الدكتور محسن جمال الدين**

التعريف

بأبي علي القالي البغدادي

- ولد عام ٢٨٨هـ توفى ٣٥٦هـ
  ٩٠١م - ٩٦٧م
- من أساتذته في النحو والادب :
  ابن دريد ـ والزجاج ـ ابن الانباري
- من أساتذته في الحديث :
  البغوي ـ العدوي ـ المحاملي
- من أشهر تلاميذه :
  أبو بكر الزبيدي ـ الرمادي
- من آثاره :
  الامالي ـ المقصور والممدود ـ مقاتل الفرسان
- دخوله الاندلس :
  في النصف الاول من القرن الرابع الهجري
- عاصر الخليفة العباسي :
  المطيع لله
- عاصر الخليفة الاندلسي :
  الحكم المستنصر بن الناصر

أبو علي القالي البغدادي

عالم غزا الاندلس بعلمه

٢٨٨هـ-٣٥٦هـ

٩٠١م-٩٦٧م

أطل القرن الرابع الهجري ، وكان الصراع الفكري والسياسي ، محتدما بين العباسين وهم في (بغدادهم) السامقة ، وبين الامويين وهم في (قرطبتهم) الناهضة .

وبدت طلائع هذا التصارع واضحة ، عندما أخذ الخلفاء الامويون هناك في - الاندلس - يمدون أيديهم الى ثروة الشرق الفكرية ، ويساعدون على اقتباس جمرات لاهبة من مواقد العراق المشتعلة ، ذكاء ، وفطنة ، ومعرفة !!

وسبيل حصولهم على تلك الاقباس والجمرات ، يعود الى ما اشتهر عنهم يومذاك من اغراء مادي ، وكرم وافر ، واحترام غزير . لكل من ناوء العباسيين أوفر من سلطانهم . أو تقذفت به باخرة الحياة الى شواطئهم ، كي يوضحوا للناس بأنهم الاهل ، لكل لاجيء ، والسند لكل محتاج ، والمولى لكل تابع ، والموطن لكل عالم !!

وهذه السياسة المقصودة أرادوا بها أن يحولوا الانظار والافكار عن منزلة (بغداد) الثقافية والسياسية ويجعلوا لهم ميادين فسيحة ، للمناظرات والمحاضرات ، والاندية الثقافية ، والمجامع العلمية . التي تحاول الغمز ،

وتعمد النقد لوضع العراق ، وساسته العباسيين .

وقد ربحت معركتهم الفكرية لشخصيات متعددة منهم : (زرياب المغني) و (ابن زريق البغدادي) و (صاعد البغدادي) و (أبو علي القالي) .

ونقف الان عند شخصية هذا المفكر النير ، والعالم المتبحر ، والرجل المبدع الذي استطاع أن يثبت مكانته ، في هوج الرياح ، وعالم السياسة الاندلسية المضطربة . وأن يتغلب على خصومه ومناوئيه . وهو لا يزال لم ينفض عنه غبار الطريق ، واستمرت تلك المنافسة بينه وبين معارضيه ، وحتى أتباعه وتلاميذه في الخفاء . وكادت ترجعه الى (بغداد) لولا ان صمد لها بغزارة علمه ، وعمق ثقافته وقوة حجته ، وسعة اطلاعه !!

شخصيته العلمية

أبو علي اسماعيل بن القاسم بن عبدون بن هرون بن عيسى بن محمد ابن سليمان القالي البغدادي ولد حسب ما رواه ابن خلكان عام ٢٨٨هـ ، المصادف ٩٠١م في قرية تسمى (منازجرد) على الفرات الشرقي بقرب بحيرة (وان) من ديار بكر ، ثم رحل الى الموصل ومنها الى بغداد عام ٣٠٣هـ حيث أقام فيها ٢٥ عاما وفي سنة ٣٢٨هـ رحل الى المغرب ودخل قرطبة سنة ٣٣٠هـ .

وقد سأله تلميذه العالم (أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي) النحوي صاحب (مختصر العين)[١] عن معنى (القالي) فأجاب تلميذه قائلا : لما انحدرنا الى بغداد ، كنا في رفقة كان فيها أهل (قالي ـ قلا) وهي قرية من قرى منازجرد ، وكانوا يكرمون لمكانتهم في الشعر ، فلما دخلت بغداد ، نسبت اليهم ، لكوني معهم وثبت ذلك علي[٢] .

---

(١) عالم اندلسي مشهور ، له مؤلفات قيمة في الدراسات النحوية منها « طبقات النحويين واللغويين » توفي /٣٧٩ .

(٢) راجع : بغية الملتمس للضبي n B. A. H. نشر قديره رقم ٥٤٧ ص٢١٦ ـ وقال صاحب (الاعلام) ج١ ط٢ ص٣١٩ بان البيزنطيين يسمونها Theodosinpols.

أساتذته وشيوخه

تتلمذ على نخبة من الاساتذة المعروفين في اختصاصهم العلمي ، والذين لا زالت اثارهم واسماؤهم تتردد في اندية العلم والمعارف حتى هذه الساعة . وهم حسب ما اختصوا به وتلقى عنهم :ـ

أ ـ أساتذة الحديث : وأشهرهم :ـ

١ ـ عبد الله بن محمد البغوي المتوفى سنة ٣١٧هـ .

٢ ـ أبو سعيد الحسن بن زفر العدوي توفى سنة ٣١٩هـ .

٣ ـ أبو بكر عبد الله بن الاشعث السجستاني توفى سنة ٣١٦هـ .

٤ ـ أبو محمد يحيى بن صاعد توفى سنة ٣١٧هـ .

٥ ـ يوسف بن يعقوب القاضي توفى سنة ٢٩٧هـ .

٦ ـ الحسين بن اسماعيل المحاملي توفى سنة ٣٠٣هـ .

٧ ـ أبو بكر بن مجاهد المقري توفى سنة ٣٢٤هـ .

ب ـ أساتذة النحو والادب : وأشهرهم :ـ

١ ـ ابن در ستوريه المتوفى سنة ٣٤٧هـ .

٢ ـ الزجاج المتوفى سنة ٣١١هـ .

٣ ـ الاخفش الصغير المتوفى سنة ٣١٥هـ .

٤ ـ نفطويه المتوفى سنة ٣٢٣هـ .

٥ ـ ابن دريد المتوفى سنة ٣٢١هـ .

٦ ـ ابن السراج المتوفى سنة ٣١٦هـ .

٧ ـ ابن الانباري المتوفى سنة ٣٢٨هـ .

٨ ـ ابن أبي الازهر المتوفى سنة ٣٢٥هـ .

٩ ـ ابن شقير المتوفى سنة ٣١٧هـ .

١٠ـ المطرز المتوفى سنة ٣٤٥هـ .

١١ـ جنحطة المتوفى سنة ٣٢٦هـ .

١٢ـ ابن قتيبه المتوفى سنة ٣٢٢هـ[١] .

---

(١) يستحسن مراجعة كتب الرجال والتراجم ـ عن هؤلاء العلماء ـ وكذلك كتاب (الاعلام) للزركلي ـ و (أعلام المؤلفين) لكحالة و (طبقات النحويين واللغويين) للانباري .

جامعته ومحاضراته

استقبل (أبو علي القالي) البغدادي ، استقبالا يليق بمنزلته العلمية ، في عهد (عبد الرحمن الناصر) سنة ٣٠٠هـ ـ ٣٥٠هـ • وابنه (الحكم) سنة ٣٥٠–٣٦٦هـ • الذي دعاه واحبه واحترمه وشجعه وجعل له ندوة في المسجد الجامع (بقرطبة) • وفي مجالس قصور (الزهراء) فالتف حول منبره الطلبة التي سمعت بمقدمه ، وعرفت له مكانته ، وشهرته وفضله ويعتبر الشيخ (أبو علي) أول استاذ رسمي في الاندلس يلقي محاضراته ويملي رواياته ويستشهد بأقواله وأفعاله ويعتمد على آرائه في النحو واللغة والادب في (جامعة قرطبة) منذ دخوله سنة ٣٣٠هـ حتى وفاته سنة ٣٥٦هـ •

وكان (القالي) يمثل في أفكاره ومناقشاته المدرسة البصرية في اللغة التي تأثر بها يوم أن تتلمذ في بغداد وأقام بها سنين طويلة[١] •

ان الملاحظ في مؤلفات (البغدادي) كالامالي والنوادر وغيرها هو انه حصرها في الافكار والاراء المشرقية والمدارس النحوية البصرية والكوفية والبغدادية • وهذا يعطينا مثلا على أن الفكر الاندلسي في شؤون اللغة والادب لم يكن متبلورا واضح المعالم في سينه كما يؤثر في أدب القالي ، أو ينعكس في مؤلفاته • وجاراه في ذلك صاحب (العقد الفريد) ابن عبد ربه الاندلسي •

قال العلامة المستشرق المعروف (بروكلمن) في تاريخه : وفي سنة ٩٤٢م عرفت (قرطبة) فقه اللغة على يد أبي علي القالي[٢] •

ان محاضرات ودروس الشيخ أبي علي البغدادي امتازت بطرافتها واسلوبها المرن وبعمق وطرق مناقشاتها وهذا ما يرى واضحا في تآليفه

---

(١) راجع : عن مدرسة البصريين ـ وطبقات نحاتها ـ (طبقات النحويين واللغويين) للزبيدي ـ ط١ / ١٩٥٤ ـ ص٢٠٢ وما بعدها •

(٢) راجع : بروكلمن ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ط١ بيروت ج٢ ص١٦١ •

وآثاره وما نقله عنه تلاميذه وأتباعه .

وقد ألف أحد مريديه (أبو محمد الفهري) كتابا قيما في رواياته ودخوله الاندلس . وذكر العالم الاسباني المستشرق (أنخيل بلانسيه A. G. Palancia) في مؤلفه (الفكر الاندلسي) قوله متحدثا عن عهد الحكم ابن الناصر ٣٥٠-٣٦٦هـ/٩٥٦-٩٦١م : وعليه وفد العالم المشرقي النابه أبو علي القالي . وكان رجلا فذا - ذا أثر ملحوظ فيمن عاصره ، أو جاء بعده من أهل اندلس[(١)] .

تلامذته

كان لابي علي القالي مدرسة ومنهج خاصان به ، وقد تتلمذ على يديه وسمع منه عدة من شيوخ الادب والعلم والرواية في الاندلس . حتى ان الانسان ليجد الوفرة المتزاحمة في طيات كتب ومؤلفات الاندلسيين التي لا تخلو منها عبارة « روى أو سمع عن ابي علي القالي » !!

وأهم من قرأ عليه وسمع منه هم :

١ - الشيخ العلامة أبو بكر الزبيدي النحوي - محمد بن الحسن صاحب (مختصر كتاب العين) المتوفى سنة ٣٧٩هـ[(٢)] .

٢ - ثانيهما الشاعر المشهور الذي كان يسمى بشاعر الاندلس أبو عمر يوسف بن هرون الرمادي المتوفى سنة ٤٠٣هـ وقد استقبله بقصيدة يمدحه بها عند دخوله قال منها :

روض تعاهده السحاب كأنه ... متعاهد من عهد « اسماعيل »
فالشرق خال بعده فكأنما ... نزل الخراب بربعه المأهول
وكأنه شمس بدت في غربنا ... وتغيبت عن شرقهم بأفول

---

(١) انظر : الفكر الاندلسي ط١ ترجمة الدكتور حسين مؤنس ص٦٠
(٢) بعضهم يثبت سنة وفاة الزبيدي سنة ٣٨٠هـ .

٣ ـ ومن سمع عنه أيضا أبو محمد عبد الله بن الربيع التميمي .
٤ ـ وأحمد بن ابان بن سعيد .

آثاره ومؤلفاته

لهذا النابغة العراقي (البغدادي) مؤلفات جمة اعتمدت عليها الاندلس في دراسة اللغة والادب والرواية منها :

١ ـ كتاب النوادر
٢ ـ كتاب ذيل النوادر (أربعة أجزاء)
٣ ـ فعلت وافعلت
٤ ـ افعل من كذا
٥ ـ المقصور والمحدود والمهموز (عشرة أجزاء)
٦ ـ البارع في اللغة
٧ ـ الابل ونتاجها وجميع أحوالها (خمسة أجزاء)
٨ ـ حلى الانسان والخيل وشياتها
٩ ـ مقاتل الفرسان
١٠ـ تفسير القصائد والمعلقات ، وتفسير اعرابها ومعانيها
١١ـ الامثال

وقد ألف (أبو عبيد البكري) كتابين اسماهما (التنبيه على اوهام ابي علي البغدادي) وكتاب (اللآلي في شرح الامالي) .

ما حمله القالي للاندلس

أفرد ابن خير الاشبيلي صاحب (فهرسة شيوخه) سردا بأسماء المؤلفات التي جلبها أبو علي البغدادي الى الاندلس منها :ـ

جزء	
٢٨	جزءا من أخبار نفطويه
٥	أجزاء من أخبار الانباري

٧ أجزاء من أخبار ابن أبي زهر

٥٨ جزءا من أخبار ابن دريد

٢ جزئين من أخبار الاخفش

١ جزءا من المدخل للمبرد

١ جزءا من المهذب

١ جزءا من البهي – للفرا

١ جزءا من الالف واللام للمازني

١ جزءا من الضيفان لثعلب

٧ أجزاء من العروض لابن درستويه

١ جزء' من السرج واللجام لابن دريد

وقد ألقى الشيخ (أبو علي) على طلبته محاضرات قيمة عن شعر الشعراء الذين عاصرهم أو من سبقوه بعصور خوالي • كانت تدور مواضيعها عن :

١ – شعر ذي الرمة

٢ – شعر الخنساء

٣ – شعر الحطيئة

٤ – شعر زهير بن أبي سلمى

٥ – شعر النابغة الذبياني

٦ – شعر حاتم الطائي

٧ – شعرطرفه بن العبد

٨ – شعر حسان بن ثابت

٩ – شعر الاعشى

١٠– شعر عروة بن الورد

١١– شعر عدي بن زيد

---

(١) راجع فهرست ابن خير الاشبيلي : ومقدمة طبعة كتاب الامالي • ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ص –/ب وما بعدها •

١٢- شعر الطرماح

١٣- شعر جميل بثينة وعمر بن ابي ربيعه

١٤- شعر أبي نؤاس

وغير هؤلاء من شعراء جاهليين ، واسلاميين ، وبعض من عاصروهم في العصر العباسي .

لمحات من حياته

الادب الجم ، اتساع العلم ، جمال المداعبة ، امتداد الصبر ، لطافة المزاج ، حسن المعاشرة . هي من صفات الشيخ ابي علي رحمه الله .

ونحن نثبت بعض الالتفاتات واللمحات المشعة من حياة شيخنا البغدادي . تاركين حكايته مع (الشيخ ابن رفاعة الالبيري) عندما دخل عالمنا الاندلس لاول مرة ومحاولة الشيخ الالبيري في اصلاح بيت من الشعر كان انشده أبو علي .

والموقف الثاني يوم وفود رسول ملك الروم لعبد الرحمن الناصر . وقيام القالي بخطبة الترحيب وعيه وتوقفه ، وظهور شخصية الخطيب (منذر بن سعيد البلوطي) ٢٧٣هـ - ٣٥٥هـ . كل هذا تركناه نظرا لما في ذلك من التحامل والنقد الجارح وروح الاقليمية وحب الذات[١] .

أما تلك اللمحات فمنها ما يشير لنا عن حرصه للعلم وآثاره ، ومنها ما يدل على لطفه ، وعلو منزلته وسرعة بديهته وشاعريته الفياضة بالاضافة الى اسلوبه اللغوي المتين .

يحكى عنه انه كان في يده نسخة من (الجمهرة) بخط مؤلفها فاعطي بها ثلاثمائة مثقال فضن بها ان يبيعها ، ثم اشتدت عليه الحاجة يوما فاضطر الى

---

(١) راجع : نفح الطيب . في ترجمة القالي - ومقدمة الامالي ط دار الكتب المصرية ١٩٢٦ .

بيعها بأربعين مثقالا وكتب عليها :

أنست بهـا عشرين عاما فبعتهـا — وقد طال وجداني بهـا وحنيني
ومـا كـان ظـني انني سـأبيعها — ولو خلدتني في السجون ديوني
ولـكن لعجز وافتقـار وصـبية — صـغار عليهـم تستهل شؤوني
فقلت ولم أملـك سـوابق عبرة — مقـالة مكوّي الفؤاد حزين
وقـد تخرج الحـاجات يا أم مالك — كرائم من رب بهن ضـنين (١)

وذكر (الحميدي) في كتابه (تاريخ الاندلس) قال :

أخبرنا القاضي أبو الحكم منذر بن سعيد البلوطي • قال كتبت الى ابي علي البغدادي القالي ، أستعير منه كتابا من الغريب وقلت :

بحـق ريـم مهفهـف — وصـدغه المتعطـف
ابعـث الـي بجـزء — من الغـريب المصنف

قال فقضى حاجتي وأجابني :

وحـق در تألـف — بفيـك أي تآلـف
لابعثن بمـا قـد — حوى الغريب المصنف
ولو بعثت بنفسي — اليك ما كنت أسرف(٢)

ومما ذكره تلميذه هارون بن موسى بن صالح القيسي المتوفى سنة ٤٠١هـ وقصته الدالة على صبره لطلب العلم وتشجيعه لتلامذته وانشاده لهم مخاطبا أبا نصر هرون بن موسى تلميذه :

دببت للجهد والساعون قد بلغوا — جهد النفوس وألفوا دونه الازراء
فكابدوا المجد حتى مل اكثرهم — وعانق المجد من أوفى ومن صبرا
لا تحسب المجد ثمرا أنت آكله — لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

ولتقف معي بضع دقائق لنفكر مليا بمصير الاندلس ، وتلك الارواح الخالدة ، السابحة في عالمها السرمدي • ولتمشي معي في الخيال ، لزيارة

---

(١) راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجماعة الغرير ص ٢٩٨ •
(٢) مقدمة الامالي ط٢/١٩٢٩ المقدمة حرف (ف) دار الكتب المصرية •

(قرطبة) الحزينة ، التي كانت يوم أمس زاهية ، زهراء ، زاهرة !! ولنفتش معا عن ضريح (ابي علي البغدادي) ذلك العالم الذي هاجر من وطنه فمات غريبا • بعد أن غزا الاندلس بعلمه ومعارفه وشخصيته اذ توفي في شهر ربيع الاول سنة ٣٥٦هـ ليلة السبت • وصلى عليه أبو عبد الله الجبيري ، ودفن بمقبرة متعة ظاهر قرطبة • وكتب على رخام قبره رحمة الله عليه :ـ

صلوا لحد قبري بالطريق وودعوا ... فليس لمن وارى التراب حبيب
ولا تدفنوني بالعراء فربما ... بكى ان رأى قبر الغريب غريب(١)

واليوم فقد أصبحت معالم العروبة في أندلسنا الجميلة خيالا وأطيافا بعد أن (تأسْبنت) ديار العرب في تلك الديار • فما أجدر بنا الان أن نعيد الى أذهاننا بعض صورها الزاهية ، وبعض مظاهر حضارتها الدائمة المتجلية برجالها الاكرمين الخالدين ، الذين لا يخلو منهم حديث ، ولا تنسى لهم ذكريات ولا يهمل لهم تاريخ ، ولا يزين بسواهم كتاب ولا تطرب بغير أدبهم نفوس !!؟؟

وما أبعد البون بين حياة رجل عالم هادىء الطبع ، قوي الحجة ، طيب القلب ، سمح النفس ، غزير المادة • وجه حياته للعلم وخدمة الفضيلة • وبين دول كبيرة تغزو العالم بأساطيلها وجنودها ومعداتها • فتحول النور ظلاما ، والمحبة بغضاء ، والخير شرا •

---

(١) مقدمة الامالي ط٢ دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ صز المقدمة •

أهم مصادر البحث

١ ـ المكتبة الاندلسية B. A. H. نشر فرنسيسكو قديره مدريد /١٨٨٢
٢ ـ جذوة المقتبس تحقيق محمد بن تاويث الطنجي ط١/١٩٥٢
٣ ـ الاعلام ج١ للزركلي ط٢ ١٩٥٩
٤ ـ دائرة المعارف الاسلامية ـ الطبعة العربية ـ ترجمة خورشيد وجماعته
٥ ـ تاريخ اداب اللغة العربية ١٩٢٥
٦ ـ نفح الطيب ط١ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٤٩
٧ ـ وفيات الاعيان ـ ط١ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٤٨
٨ ـ بونس Pons مدريد ١٨٩٨ ط١
٩ ـ بلانسيه Palancia الفكر الاندلسي ترجمة الدكتور يونس ط١ ١٩٥٥
١٠ـ الامالي ـ ط٢ دار الكتب المصرية ١٩٢٦
١١ـ بروكلمن ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ط١ بيروت ٩٤٩
١٢ـ طبقات النحويين واللغويين نشر محمد ابو الفضل ابراهيم ١٩٥٤ ط١
١٣ـ بغية الوعاة ـ للسيوطي ط١ ١٣٢٦
١٤ـ روضات الجنات ط ايران
١٥ـ أنباه الرواة ـ للقفطي ج١ ط١

التعريف

بابن زريق البغدادي

- كان فى العصر العباسي الثالث
- أخبـاره قليلة جـدا
- لم تعرفه المصـادر الاندلسية
- ترك القصيدة العينية واشتهر بهـا
- لم يترجمه الا قليلون
- نسبت بعض أبيـات من قصيدته لابن الوكيـل والوأواء الدمشقي
- عارض قصيدته وخمسها بعض الشعراء والشاعرات .

ابن زريق البغدادي

شاعر هجر وطنه ـ فمات في أحضان الاندلس

حدود سنة ٤٢٠هـ ـ ١٠٢٩م(١)

في تاريخ الادب العربي ذخيرة لا تنفـذ من زاد المعرفة ، ومن فيض العرفان . نرجع اليها كلما ضاقت بنا سبل الرشاد . واضطرمت نفوسنا لدراسة موضوع يعوزنا البحث عنه .

وهذه اللفتات الطيبة التي سجلها لنـا مؤرخو الادب ، منهـا ما جاءت ناقصة يعوزها التدقيق ومنها ما جاءت مقتضبة ، بحيث جعلتنـا نعيش في جو غامض مدلهم !! لاسـباب سياسية ، أو عقائدية ، تبعـا للظروف والاحوال ، ورغبة في ارضاء المتنفذين والرؤساء !

فهذا شاعر مثلا ، تجد عنـه الحـديث الزاخر من الشـعر والقول ، والاطراء والاطناب ، يحتل الصفحات الكبيرة من أسفارنا العربية القديمة . مع ما لديه من سخف المعنى وسخف اللفظ . لانه كان يتزلف لذوي الجاه والحكم ، وذاك لا يحظى الا بزاوية مظلمة صغيرة ، لا تسـلط عليهـا أشعة الجلاء ، وكاشـفات العتمة ، كي لا يعرفه النـاس ، ويعرفون فضـل علمه وشخصيته ، وذنبه انه لم يتزلف لذوي النفوذ في عصره ، ويسير في بهرجة مواكبهم المزيفة !؟

ومن بين هؤلاء الذين تبعتهم ذئاب الفقر والمجاعة تلتهم منهم العز والثروة

---

(١) راجـع : بروكلمن ـ تاريخ الادب العربي ـ ط١ ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ـ ١٩٦١ ص٦٦ رقم٢١ ج٢ ـ وهذا التاريخ فيه اختـلاف عن زمن هجرة الشـاعر .

والهدوء والطمأنينة والاستقرار في وطنهم .

الشاعر الكاتب (أبو الحسن علي بن زريق البغدادي)[٢] الذي تلاعبت بأشعاره أيدي العابثين ، وقطعت أوتار قصائده أنامل الناقلين والمؤرخين والمتشاعرين ، لا لسبب جناه ، ولا لذنب أتاه ، بل لانه مغمور في ذلك الوسط الذي كثرت فيه طوائف الامراء ، وازدادت فيه شفاعات المعتفين ووقفت في أبواب خلفائه زمر الشعراء ، تطلب اللقمة فلا تجدها الا بقصيدة طويلة كالمعلقات كلها تزلف وهراء ، تريد البلغة فلا تعثر عليها الا في الجهد ، والتجوال والسفر والانتقال .

أما هذا العصر فهو العصر العباسي الثالث[١] الذي ازدادت فيه المبالغة ، وطول القصائد ، وتولدت فيه الموشحات الاندلسية والدهريات والصوفيات والفلسفيات والزهريات والهزليات والاخوانيات والمجونيات ، واقبل علماؤه وامراؤه وكتابه على نظم الشعر ، وزاد عدد الشعراء والمتشاعرين ، حتى قيل ان الصاحب بن عباد بنى دارا فهنأه بها خمسون شاعرا ، وان صديقا له مات حماره فرثي الحمار بأكثر من خمسين قصيدة !!

أما الظاهرة الاخرى في هذا العصر فهي زيادة المكتبات كمكتبات بغداد والقاهرة وقرطبة . التي تضم آلاف المجلدات والدواوين الشعرية . والكتب الفلسفية والمنطقية والفقهية . وظهرت جماعة من المتشاعرين ، ونبغت طبقة من الشعراء الكبار . عند الدويلات العربية ، في الداخل وفي الحدود من البلدان العربية ، ممن ضمتهم الدولة الحمدانية ، في حلب ، والبويهية في فارس والسامانية ما وراء النهر ، والفاطمية في مصر ، والمروانية في الاندلس، وغيرها ممن تفصلها كتب التاريخ .

---

(٢) في طبقات الشافعية الكبرى ــ للسبكي ج/١ ط١ ص١٦٢ قصيدة ابن زريق وبعض أخباره .

(١) جعل زيدان (ابن زريق) في العصر العباسي الثالث ــ اداب اللغة العربية ج٢ ط١ ص٢٦٤ .

هـذه الدول أضرت من ناحية السياسة العامة والوحدة ، وأفادت من ناحية الادب وتشجيعه وأقصد بتشجيع الاديب ، ادب التملق ، والاطراء ، والمدح ، والتفاخر ، والمظاهر • كما لها فضل في نواحي العلوم ، ودوائر المعارف ، والسياسة ، والاقتصاد والمتبسدات •

هذا هو الموجز لحياة هـذا العصر الذي برزت فيه شخصية الشـاعر (أبو الحسن البغـدادي) كما برزت فيـه شـخصيات المتنبي ، والمعري ، والحمداني ، وابن هاني الاندلسي•والوأوا الدمشقي ، والشريف الرضي ، ومهيار الديلمي ، وابن شهيد الاندلسي ، وابن دراج القسطلي الاندلسي• وغـيرهم •

شخصية الشاعر وسفره للاندلس

هو علي بن زريق البغدادي (أبو الحسن) الشاعر والكاتب ، تفتحت عيناه على دجلة المغناج وكرخها الجميل ، ورصافتها البكر ، وبدت حيـاته هنيئة ناعمة في مطلع شبابه ، بين أحباب ذابت مهجته في حبهم ، وفي بلد ضم أقمارا من الحسن ، وزهورا من الجمال •

استودع الله في بغـداد لي قمرا … بالـكرخ من فـلك الازراء مطلعه
ودعتـــه وبـودي لو يودعنـــي … صـفو الحيـــاة واني لاودعـه(١)
وكـم تشـــفع بي أن لا افارقـــه … وللضـرورات حـال لا تشـفعه(٢)
وكم تشبث بي يوم الرحيل ضحى … وأدمعـي مسـتهلات وادمعـه

---

(١) في مخطوطة رقم ٦٩٤ المستنصرية ـ ورد البيت هكذا : ص٧٢ :
ودعتـه وبودي لو تودعني … طيب الحياة واني لا أودعه
وفي مخطوطة رقم ١٧١٦ ـ المستنصرية ص٢٣٣ :

ودعتـه وبودي لو يودعني … طيب الحياة واني لا أودعه

(٢) ورد هذا البيت في المخطوطتين رقم ٦٩٤ـ١٧١٦
وكم تشـفع لي الا أفارقه … وللضرورة حال لا تشـفعه

ولكن النعمة التي عاش بها ابن زريق ، ضاعت من يده ، والحبيب الذي غرس في رياض وده زهرة محبته : لم يستطع أن يحتويه ويضمه ، فضاع من بين يديه ماله وهواه فقال :ــ

اعطيت ملكا فلم أحسن سياسته ... وكل من لا يسوس الملك يخلعه[1]
ومن غدا لابسا ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فعنه الله ينزعه
كم قائل لي ذقت البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه[2]

وفي عهده شحت الاموال للاضطرابات السياسية ، والعوامل الخارجية التي كانت تصيب الدولة من منافسيها الاقوياء وهجومهم المتتابع ، الذي كان ينفذ المال والرجال ، ويقلق الفكر والبال • فقصرت يد الشاعر عن المادة ، فرحل وسعى وراءها حتى يقضي بها حوائجه المعاشية ، ويدير بها شؤون بيته ، ويجمع بواسطتها عقد أحبابه ، وهو كما يبدو من شعره غير سعيد الجد ، لم يهدأ من سفرة الا ويستعد لاخرى ، ولا يذهب عنه هم الا ويحيط به آخر •

ما آب من سفر الا وأزعجه ... عزم الى سفر بالرغم يزمعه[3]
تأبى المطالب الا أن تكلفه ... للرزق سعيا ولكن ليس يجمعه[4]

---

(١) ورد البيت في مخطوطة رقم ٦٩٤ هكذا :
رزقت ملكا ولم أحسن سياسته ... وكل من لا يسوس الملك يخلعه
وفي مخطوطة رقم ١٧١٦ هكذا :
ملكت ملكا فلم أحسن سياسته ... وكل من لا يسوس الملك يخلعه
(٢) ورد في المخطوطتين السالفتين هكذا : رقم ٦٩٤
كم قائل قال ذقت البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
وفي رقم ١٧١٦ :
كم قائل لك ذنب البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه
(٣) في مخطوطة رقم ٦٩٤ هكذا :
ما آب من سفر الا وأزعجه ... رأي الى سفر بالرغم يجمعه
وكذلك ورد في مخطوطة ١٧١٦ :
(٤) ورد هكذا في رقم ٦٩٤ وفي رقم ١٧١٦ :
تأبى المطامع الا ان تجشمه ... للرزق كدحا وكم ممن يودعه

كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الله يذرعه[٥]
اذا الزمان اراه في الرحيل غنى ولو الى السند اضحى وهو يقطعه[٦]

هجرة الشاعر

نعتقد ان لهجرة الشاعر الى اسبانية اسبابا عدة ، منها السعي وراء المال ، والامال التي راودت مخيلته في أن ينال ما يريده من خير ، من خلفاء أو امراء الامويين في الاندلس ومنها الاضطهاد الفكري الذي ربما لحقه في بغداد لمعارضته لسياسة العباسيين ، أو لخلافه مع سياسة الدولة القائمة يومذاك ، ونحن نعلم كم شردت السياسة من رجالات الفكر والادب ، واضطهدت المفكرين والاحرار ، وقضت على النخبة المختارة من الوطنيين المخلصين . وان للضرورات أحكاما كما يذكرون تبعد الانسان عن مراتع صبوته ، وتذيق الفرد مرارة الفرقة ولهب الهوى والنوى !!

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حدا أضر به من حيث قدرت ان اللوم ينفعه[٧]
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عنفه فهو مضنى القلب موجعه[٨]
يكفيه من روعة التفنيد ان له من النوى كل يوم ما يروعه

---

(٥) ورد هكذا في رقم ٦٩٤ وفي رقم ١٧١٦ هكذا :
كأنما هو في حل ومرتحل موكل بفضاء الارض يذرعه

(٦) ورد هكذا في رقم ٦٩٤ :
اذا لزماع أراه في الرحيل غنا ولو الى السد أضحى وهو يزمعه
وفي رقم ١٧١٦ :
اذا لزماع اداه في الرحيل غنا ولو الى السد اضحى وهو يزمعه

(٧) ورد هكذا في المخطوطتين رقم ٦٩٤ و١٧١٦ :
جاوزت في لومه حد المضر به من حيث قدرت ان اللوم ينفعه

(٨) ورد هكذا في رقم ٦٩٤ و١٧١٦ :
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا من عذله فهو مضنى القلب موجعه

والحق ان هذا الشاعر التعس ، لم يكن بالناكر للحب والجاحد للمودة ، والناسي للعهد ، بل انما هو يعيش في شقاء مستمر ، ونوم قلق ، وعيشة نكده ، شأنه شأن من تركهم وراءه في دار السلام ، وفي ظلال دجلة الناعمة .

يا من أقطع أيامي وانفذها ... حزنا عليه وليلي لست أهجعه(1)
لا يطمئن بجنبي مضجع وكذا ... لا يطمئن به مذ بنت مضجعه(2)
من عنده لي عهد لا يضيع كما ... عندي له عهد صدق لا أضيعه(3)
ومن يصدع قلبي ذكره واذا ... جرى على قلبه ذكرى يصدعه

وهكذا تسير قافلة الشاعر يحدوها الامل ، ويغذيها الالم ، ويطعمها القلق ، ويسقيها الهم ، تسير متوجهة الى الاندلس ، وهو في أحلام أمانيه ، وفي مرارة صبره معتقدا بأن بعد الظلمة نورا ، وان بعد الشدة فرجا .

غير انه دخل في دوامة جارفة لم يخرج منها الا وهو يفيض بأنفاسه ، ويردد آهاته ، ويبعث لشكواه بقصيدة خلدت شجونه ، وصورت تحطيم أمانيه ، ولوا اعج حبه ، ولهب شكواه وفراقه !!

أما طريقة موته فبعضهم ينسبها الى انتحاره وهي رواية يعوزها الدليل ، وتستبعد من نفس طموحة ، دفعتها الآمال والمغامرة ، لقطع الفيافي والبحور ، وتذليل المشقات . ولكن الصدمة المفاجئة هي التي أثرت في نفسه ، وشلت حركاته قلبه الخفاق المتألم ، فمات سريعا ، كما يموت الفجر في أحضان الشمس اللاهبة !!

---

(1) ورد في مخطوطة رقم ٦٩٤ هكذا وفي رقم ١٧١٦ :

اني لاقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه

(2) ورد في مخطوطة رقم ٦٩٤ هكذا :

لا يستقر لقلبي مضجع وكذا ... لا يستقر له مذ نبت مضجعه

(3) ورد هكذا في مخطوطة رقم ٦٩٤ ورقم ١٧١٦ :

من عنده لي عهد لا يضيعه ... كما له عهد صدق لا أضيعه

وان هذه القطع الدامية التي ظلت أثرا يشير باصابعه الى مصير الاديب البائس ، والشاعر الشاكي • جعلتنا لا نغتر بل نشك بالمظاهر الملونة الزاهية التي اسبغها مؤرخو ذلك العصر ومن تبعوهم في تصويرهم لتقدير الاديب ووصفهم للنعم والسعادة ، لذوي الشاعرية والعبقرية ، من لدن أصحاب الدولة والصولة •

وما الحالة التي عاناها (ابن زريق البغدادي) والنهاية التي أصابته الا مظهر صادق من مظاهر تردي ذلك الزمن وسوء أوضاعه الاجتماعية المختلفة، وقلق استقراره السياسي •

فشله في الاندلس

لم أر في المصادر التي بين يدي نورا واضحا يدلني على أسباب فشل الشاعر البغدادي في سفرته الطويلة الممضة ، وضياع آماله هناك • كما واني لم استطع أن أتبين ملامح الخليفة أو الامير الاندلسي الذي زاره شاعرنا ، ولم يحظ لديه بالخير والمنحة سوى ما ذكره لنا المرحوم الاستاذ (جرجي زيدان) في مؤلفه (تاريخ آداب اللغة العربية)[1] عند تحدثه عن شعراء الثالث العباسي قال :ـ

« لا يصح الاغضاء عن أبي الحسن علي بن زريق الكاتب البغدادي ، صاحب القصيدة التي قالها في حال غمه ويأسه بعد أن قصد ـ صاحب الاندلس ـ ومدحه فلم يعطه الا عطاءا قليلا فاعتل ومات » •

وذكر ان ـ صاحب الاندلس ـ انما أراد أن يختبره ، فلما كان بعد أيام سأل عنه فتفقدوه في الخان الذي كان فيه فوجدوه ميتا وعند رأسه رقعة

---

(١) آداب اللغة العربية ـ لزيدان ط١ ١٩١٢ ج٢ ص٢٦٤ •
أما بروكلمن في تاريخ الادب العربي ط١ ترجمة النجار ص٦٦ ج٢ ١٩٦١ « فيشير الى انه رحل الى ابي عبد الرحمن الاندلسي يرجو العطاء » •

فيها القصيدة المشار اليها ومطلعها :ـ

لا تعذليه فان العذل يولعه قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه(١)

هذه الخلاصة الوجيزة لا تكشف لنا بوضوح عن وفاة الشاعر ولا عن سيرة حياته وآثاره ، ولا عن أسباب سفرته وترحاله ولا عن اسم (صاحب الاندلس) وتاريخه . أما موضوع الاختبار فرواية لم يتحقق معناها ومغزاها ، وهل ان الملوك كانوا يختبرون اخلاص الواقفين المادحين أمام أبوابهم وفي مجالسهم ، بقدر ما كانوا يطربون لسماع مدحهم وتعظيمهم !؟؟

ومن الذي منع صاحب الاندلس ـ مثلا ـ أن لا يختبر (زرياب) المغني البغدادي ، الذي ترك بغداد ليحل في قصر الخلافة هناك ؟ أهي المصادفات ؟ أم الظروف ؟ التي حالت دون تحقيق أمنية الشاعر وسعادته . والتي منعت يد الخليفة أو الامير الاندلسي ان لا تجوز عليه الهبات ؟

لكني وجدت بأن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية يوم زيارة الشاعر لاسبانيا كانت ظروفا حرجة تحيط بالدولة الاموية المروانية ولسياستها الداخلية والخارجية لاننا نعلم بأن ملوك الاندلس ـ كعبد الرحمن الناصر صاحب الزهراء والحكم وهشام ، كانوا يشجعون الادباء ويقدرون الشعراء والفنانين ويحترمون الادب الذي سخروه لخدمة سياستهم شأنهم شأن الدول الشرقية ، ناهيك بالحاجب المنصور بن أبي عامر وملوك الطوائف ، كآل عباد ، وآل ذي النون . كلهم يحتلون الصفحات في تاريخ الادب العربي ، عن هباتهم ومساعداتهم لمن وصفوا مآثرهم ومفاخرهم . واجادوا في بعث الغرور في نفوسهم ، ولكن هل ابن زريق لم يستطع أن يخلق ذلك الجو الساحر في قصيدته ليؤثر فيه على قلوبهم وأفكارهم ـ وهل ان شعر المشرق ، وخاصة الشعر البغدادي لم يقدر أن يزاحم الموشحات الناعمة والقصائد الوجدانية الحالمة ؟ لا أظن ذلك .

---

(١) نسبها بعضهم الى الشاعر حسام الدين الحاجري (ابن الوكيل) وهذا خطأ ـ راجع مخطوطة رقم ١٩٤٤ ص١١٢ المستنصرية .

غير اننـا لو القينـا نظرة موجزة على الحالة في الاندلس أي في مطلع القرن الثالث الهجري لوجدنا الانطباعات التالية :ـ

١ ـ في عصر عبدالرحمن الناصر (٣٠٠ـ٣٥٠هـ) حل بالاندلس قحط شديد ومجاعة عامة وارتفاع بالاسعار وأمراض ومحن وموت وافر ، حصد النفوس لمدة عامين ، مع ثورات (ابن حفصون) في غرب البـلاد ، وثورة (طليطلة) و (بلنسية) على الخليفة الاموي ، وتضـامن مملـكتي (ليون) و (نفارا) ومقاومة عبد الرحمن للدولة الفاطمية الجديدة في شمال أفريقية.

ولا يهمنا ما وصفه (ابن حوقل الرحالة البغدادي) عند زيارته قرطبة في هذا العصر ، ومبلغ غنى الناصر فهذه رواية جاءت بعد استقرار الخلافـة بمدة من الزمن ، وبها صورا المبالغة !!

ورحلة (ابن زريق) لا يستبعد انها كانت في مثـل هـذه الاحوال المضطربة الهـائجة التي تتطلب من الخليفة التـدبير والحزم ، قبـل سماع قصائد المديح .

٢ ـ ولو فرضنا فرضا آخر ، وهو ان الشاعر زار الاندلس في خلال خـلافة (الحكم بن عبد الرحمن) الذي تولى حـكمه وعمره ٤٧ عاما من سنة ٣٥٠ـ٣٦٦هـ الا انه كان ضعيف الشخصية مصابا بالشـلل مقلدا أمور الدولة لمحظيته الحسـناء (صبح) الفوطيه Ourora المحاطة باتباعها وعشيقها المغامر ابن ابي عامر ، والحاجب جعفر ابن عثمان المصحفي . ولم تكن حالة الحكم النفسية والجسدية تساعد على تقبل الشعر وسماع المديح .

٣ ـ أما الغرض الثالث والاخير ، فهو انه بموت الخليفة الحكم تولى الامر الفعلي ثلاثة وهم :

محظيتـه (صبح) أم هشـام ، والمصـحفي ، والوزير ابن عامر وبدأ التنافس على أشده ، والمؤامرات في أوجها والثورات في زحمتها على الدولة التي تحاول القيام على أقدامها كمجدها السـابق ، وليس لهـا من خليفة الا (هشام الصغير) ابن المحظية الفوطيه . الذي لا يحمل من الملك الا اسمه

والذي قال بعضهم عن لسانه[1] .

أليس من العجائب ان مثلي ... يرى ما قل ممتنعا عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شيء في يديه

ولا يستبعد أن تكون زيارة الشاعر في عهد (هشام) المحجور عليه في قصره ، أو في عهد المنصور بن ابي عامر المشغول بهواه مع صبح أو بالقضاء على ثورات المنافسين لسلطته من الامويين ، وصاحبه أبي عثمان المصحفي .

اذن ، من كل هذه الاستنتاجات السالفة الذكر ، كانت الظروف غير حسنة لسفرة (ابن زريق) فمن عوامل سياسية مضطربة ، ومن محن قاسية ، ومن تصارع وأهواء ودسائس ، ومن حالات نفسية متشابكة . جعلت أن تكون سفرته فاشلة ، لم ينل نصيبا من الخير ، أو وافرا من النعم .

فعاد الى المسجد غريبا ، يائسا ، حزينا . يفكر بوضعه ، فوجد ان رجوعه لاحبابه بالفشل الذي يحيطه انتحارا بطيئا وبالالم الذي يغمره شقاءا مستمرا . فغرقت نفسه الابية في بحران همومها ليلا ، وشرد فكره نهارا ، حتى طغت سيول الحزن عليه ، ولم يساعده القدر على احتمالها فمات وهو ينشد رائعته الباقية على الالسن ، المشيرة الى انه أحد الضحايا الكادحين ، الذين لم تسمح لهم نظمهم الاجتماعية ان ينالوا حقهم في حياة من الاستقرار والعيشة الهنية . بل عاش مشردا ، ومات مهاجرا ، وخلد شاعرا ، تحت رأسه المترنح قصيدة ، وفي نفسه المضطربة آمال ، وفي قلبه الملتاع حب . وفي حنجرته المضطربة صرخة ، وفي عيونه الشاخصة نغمة وثورة :ـ

لاصبرن لدهر لا يمتعني ... به ولا بي في حال يمتعه[1]
وان تنل احدا منا منيته ... لا بد في غده الثاني سيتبعه

---

(١) راجع البيان المغرب ـ لابن عذاري المراكشي ط صادر ج٢ ص٣٧٧ في وصفه لحالة الخليفة هشام بن الحكم الملقب بالمؤيد .

(١) ورد في مخطوطة رقم ١٧١٦ ص٢٣٧ قوله :

وان ينل احدا منا منيته ... فما الذي بقضاء الله نصنعه

أما الذين أنصفوا الشاعر بعد موته ، واهتموا برائعته[٢] الفريدة . منهم :ـ (العلامة البهائي) في كشكوله وشارحها (علي بن عبد الله العلوي) ومخمسها (علي بن ناصر الباعوني) وللشرح والتخميس كما يذكر (زيدان) نسخة في (مكتبة برلين) ولكن المؤرخ (الثعالبي) في يتيمته نسب بعض أبيات القصيدة للشاعر (الوأواء الدمشقي) المتوفى سنة ٣٩٠هـ والقائل[٣] :ـ

بالله ربكما عوجا على سكني   وعاتباه لعل العتب يعطفه
وعرضا بي وقولا في حديثكما   ما بال عبدك بالهجران تتلفه
فان تبسم قولا عن ملاطفة   ما ضر لو بوصال منك تسعفه
وان بدا لكما من سيدي غضب   فغالطاه وقولا ليس نعرفه

ونسبة (الثعالبي) لا تظهر لنا ملامح الوأواء بقدر ما تشير الى قوة (ابن زريق) الشاعرية وشهرته التي ظلت بعده من ارثه الشعري ، الذي لم تستطع الازمان أن تشوهه ، وتذهب من بهائه ، لان الشعر الخالد كالروح الخالدة في عالم اللانهاية . تتسع حيزا ، وتشع نورا ، كلما طال زمانها ، وتقادم عهدها .

قيض الله لك أيها الشاعر العاثر من يعيد لك شعرك ، ويحفظ لك ذكرك ، ويقدر لك ادبك ، ويجمع لك شتات آمالك التي ضاعت في حياتك ، وخلدت مع الزمن بعد ذهاب أيامك !؟

---

(٢) يراجع : فهرست مخطوطات برلين ـ تحت رقم ٧٦٠٦ ـ ٧٦٠٧ سنة ١٨٩٤ وتاريخ اداب اللغة العربية ـ زيدان ج٢ ص٢٦٤ .

(٣) راجع : يتيمة الدهر ج١ ص٢٧٧ ط١ ١٩٤٧ . تحقيق الشيخ محمد محي الدين عبدالحميد .

أهم مصادر البحث

١ – بروكلمن – ط عربية ج٢ ص٢٢ – ترجمة النجار دار المعارف بمصر .
٢ – السبكي – طبقات الشافعية الكبرى ط١ الحسينية – ج١ .
٣ – الجزائري – مجموعة المزدوجات ط الاسكندرية سنة ١٢٧٨ .
٤ – الزركلي – الاعلام ط٢/١٩٥٩ .
٥ – البستاني – دائرة المعارف ج١ ص٢٩٠ .
٦ – المقدسي – المختارات السائرة – ط الاميركانية ١٩٤٣ .
٧ – فهرست القاهرة ج٢–٣–٢٣ سنة ١٩٢٧ .
٨ – مخطوطة المستنصرية رقم٦٩٤ ص٧٢ وما بعدها .
٩ – مخطوطة المستنصرية رقم ١٧١٦ ص٢٣٠ وما بعدها .
١٠– الندى الرطيب – في الغزل والنسيب – لسركيس . بيروت المطبعة الادبية ١٨٨٦ .
١١– فهرس مخطوطات برلين – سنة ١٨٩٤ رقم ٧٦٠٦ ص٥٨٥ ورقم٧٦٠٧
١٢– مصارع العشاق – مطبعة الجوائب ط١ القسطنطينية سنة ١٣٠١ ج١ ص٩ .
١٣– معجم المطبوعات العربية – لسركيس تحت رقم ١٩٥١ في ترجمة ولي الدين يكن .
١٤– نفح الازهار – ص٥ – نشر مكتبة محمود توفيق – مصر .
١٥– مناجاة الحبيب – في الغزل والنسيب – لبشير رمضان – بيروت ط١ .
١٦– الكشكول – للبهائي – المطبعة البهية ج١ ص٥٦ سنة ١٣٠٢هـ .
١٧– مدامع العشاق – للدكتور زكي مبارك ط٢ ص٥٢ .
١٨– ثمرات الاوراق – لابن حجة الحموي ص٢١٠ ط١ مصر سنة ١٣٦٨ .
١٩– تاريخ آداب اللغة العربية – لزيدان – ج٢/١٩١٢ ط١ .
٢٠– البيان المغرب – لابن عذاري المراكشي ط صادر ١٩٥٠ بيروت ج٢ .
٢١– شعراء الواحدة – نعمان ماهر الكنعاني ط الصباح بغداد ١٩٤٥ ص٤٤
٢٢– من عبقريات نساء القرن التاسع عشر – يوسف مسكوني – ج١ ط٢ المعارف – ١٩٤٧ ص١٥٣ .
٢٣– المخطوطات العربية في مكتبة المتحف العراقي – كوركيس عواد – القسم الثاني ط الرابطة بغداد ١٩٥٨ .
٢٤– تراجم اسلامية – شرقية واندلسية – محمد عبد الله عنان .
٢٥– يتيمة الدهر – للثعالبي ط١ ج١ محمد محيى الدين عبد الحميد ١٩٤٧

مخطوطة قصيدة ابن زريق البغدادي

ابن زريق البغدادي .

لا تعذليه فإن العذل يولعه — قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت في لومه حد اضربه — من حيث قدرت ان اللوم ينفعه
فاستعملي الرفق في تأنيبه بدلا — من عذله فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعا بالبين يحمله — فضلعت من خطوب الدهر اضلعه
يكفيه من لوعة التفريق ان له — من النوى كل يوم ما يروعه
ما آب من سفر الا وازعجه — راي الى سفر بالرغم يجمعه
تأبى المطامع الا ان تجشمه — للرزق كدحا وكم ممن يودعه
كانما هو في حل ومرتحل — موكل بفضاء الارض يذرعه
اذا الزمان اراه في الرحيل غنا — ولو الى السند اضحى وهو يزمعه
وما مجاهدة الانسان واصلة — رزقا ولا دعة الانسان تمنعه
قد قسم الله بين الخلق رزقهم — لم يخلق الله من خلق يضيعه
لكنهم كلفوا حرصا فلست ترى — مسترزقا وسوى الغايات تقنعه

القسم الاول

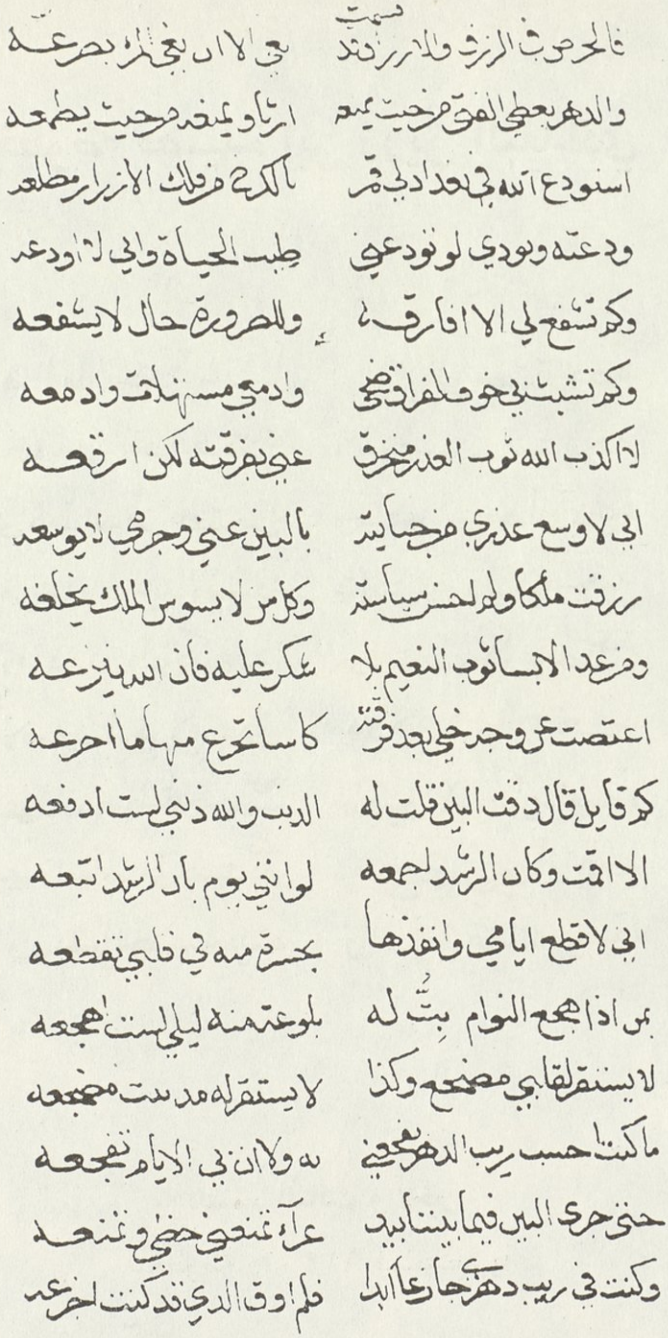
(١)

(١) مخطوطة رقم ٦٩٤ ص٧٢ وما بعدها .
(٢) المستنصرية ـ الاثار ـ بغداد
(٣) مجموعة أشعار قديمة ـ في القرن الحادي عشر للهجرة ١٧م(١)
(٤) لم يذكر اسم جامعها .

---

(١) راجع : المخطوطات العربية ـ في مكتبة المتحف العراقي ـ للاستاذ كوركيس عواد ـ (القسم الادبي) ١٩٥٨ ص٤٨ .

مخطوطة قصيدة ابن زريق البغدادي



فالحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت ... بغي ألا إن بغي المرء يصرعه

والدهر يعطي الفتى من حيث يمنعه ... ارثاً ويمنعه من حيث يطمعه

استودع الله في بغداد لي قمراً ... بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ودعته وبودي لو يودعني ... طيب الحياة وأني لا أودعه

وكم تشفع بي ألا أفارقه ... وللضرورة حال لا يشفعه

وكم تشبث بي خوف الفراق ضحى ... وأدمعي مستهلات وأدمعه

لا أكذب الله ثوب العذر منخرق ... عني بفرقته لكن أرقعه

إني لأوسع عذري في جنايته ... بالبين عني وجرمي لا يوسعه

رزقت ملكاً فلم أحسن سياسته ... وكل من لا يسوس الملك يخلعه

ومن غدا لابساً ثوب النعيم بلا ... شكر عليه فإن الله ينزعه

اعتضت عن وجه خلي بعد فرقته ... كأساً أجرع منها ما أجرعه

كم قائل لي ذقت البين قلت له ... الذنب والله ذنبي لست أدفعه

ألا أقمت وكان الرشد أجمعه ... لو أنني يوم بان الرشد أتبعه

إني لأقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة منه في قلبي تقطعه

بمن إذا هجع النوام بت له ... بلوعة منه ليلي لست أهجعه

لا يستقر لقلبي مضجع وكذا ... لا يستقر له مذ بنت مضجعه

ما كنت أحسب ريب الدهر يفجعني ... به ولا أن بي الأيام تفجعه

حتى جرى البين فيما بيننا بيد ... عسراء تمنعني حظي وتمنعه

وكنت في ريب دهر جازعاً أبداً ... فلم أوق الذي قد كنت أجزعه

(٢)

القسم الثاني من القصيدة

مخطوطة رقم ٦٩٤ المستنصرية

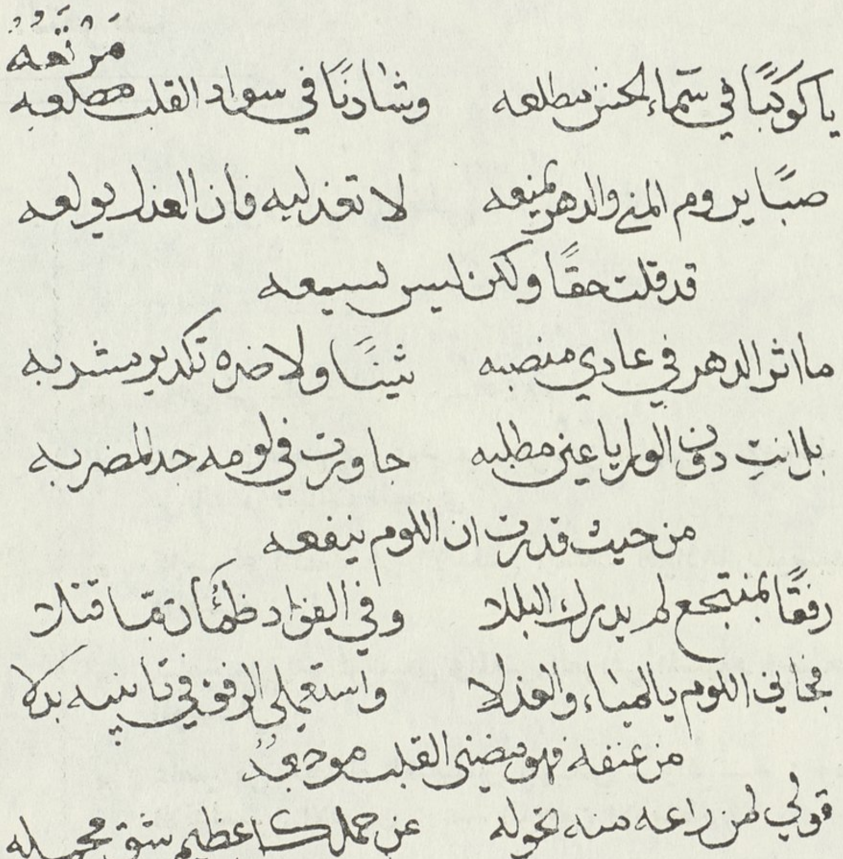
مخطوطة قصيدة ابن زريق البغدادي

هل الزمان معيد فيك لذتنا — ام الليالي التي امضته ترجعه
بالله يا منزل القصر الذي درست — اثاره وعفت مذ بنت اربعه
في ذمة الله من اصبحت منزله — وجاد غيث على مغناك يمرعه
من عنده لي عهد لا يضيعه — كما له عهد صدق لا اضيعه
ومن يصدع قلبي ذكره واذا — جرى على قلبه ذكري يصدعه
لاصبرن لدهر لا يمتعني — به ولا بي في حال يمتعه
علما بان اصطباري معقب فرجا — فاضيق الامر ان فكرت اوسعه
عسى الليالي التي اضنت بفرقتنا — جسمي ستجمعني يوما وتجمعه
وان تغل احدا منا منيته — فما الذي في قضا الله يصنعه

القسم الثالث والاخير

مخطوطة رقم ٦٩٤ المستنصرية

تخميس قصيدة ابن زريق البغدادي
في مخطوطة ديوان ابراهيم بن يحيى العاملي


يا كوكباً في سماء الحسن مطلعه … وشادناً في سواد القلب مرتعه
صباً يروم المنى والدهر يمنعه … لا تعذليه فان العذل يولعه
قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
ما اثر الدهر في عادي منصبه … شيئاً ولا ضره تكدير مشربه
بل انت دون الورى يا عين مطلبه … جاوزت في لومه حد المضر به
من حيث قدرت ان اللوم ينفعه
رفقاً بمنتجع لم يدرك البلا … وفي الفؤاد ظماء تما قبلا
فجانبي اللوم بالمينا والعذلا … واستعملي الرفق في تأنيبه بدلا
من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قولي لمن راعه منه تحوله … عن حمل كل عظيم شق محمله

القسم الاول

(١)

(١) مخطوطة رقم ١٧١٦ ص٢٣٠ وما بعدها
(٢) المستنصرية ـ الاثار ـ بغداد
(٣) ديوان الشيخ ابراهيم بن يحيى العاملي المتوفى سنة ١٢١٠هـ
(٤) نسخة غير مؤرخة(١) قريبة من زمن المؤلف

---

(١) راجع : المخطوطات العربيـة ـ في مكتبـة المتحف العراقي ـ (القسم الادبي) للاستاذ كوركيس عواد ـ ١٩٥٨ ص٩٠

التعريف

بزرياب المغني البغدادي

- توفى في عام : ٢٣٠هـ ـ ٨٤٥م
- دخل الاندلس في عهد عبد الرحمن الثاني (الاوسط) في القرن الثالث الهجرى
- كانت له اسـرة في الاندلس اتصف أفرادها بالموسيقى والغنـاء
- تتلمذ على يد الموسيقي والمغني العراقي المشهور اسـحق الموصـلي
- عاصر من الخلفاء العباسيين المهـدي ـ والرشيد • ومن الاندلسيين الامويين : عبد الرحمن الاوسط
- كان شاعرا بالاضافة الى فنه الموسيقي الغنائي •
- أدخل للاندلس العادات البغدادية ـ والازياء العراقية ـ وبعض المأكولات الشرقية •
- تخرج على يديه وأحبه وقدر فنـه طائفـة من الشـعراء والفنانيين في الاندلس •

زرياب المغني البغدادي

حامل لواء الموسيقى والاغاني العربية في الاندلس

٠٠٠ـ٢٣٠هـ

٠٠٠ـ٨٤٥م(١)

هذه الآهات المتصاعدة من أعماق القلوب ، التي ترسم في الجو المطرب دوائر من الالم والحسرة ، والبهجة والسرور ، عندما تشنف اذنيك ، وأنت صاغيا الى الاغاني والموسيقى الاندلسية تنبعث من حنجرة مطربة ساحرة ، ومن ثغر أقحواني بديع !!

هذه الاغاني وتلك الموسيقى اذا سمعتها لاول مرة انحدرت من عينيك دمعات غوال ، لا تدري ما مصدر انبعاثها سوى ان عقلك الباطن قد دفعها الى جفنيك ، ليذكرك بحسرات القلوب المنكسرة التي ودعت وطنها الاندلس ، يوم أن غادرته لا تلوي عـلى شيء ، فبقيت في الكأس ثمالة من بقـايا النفوس الجريحة والارواح المتألمة الحزينة . يصدرها غناء أمثال (أنطونيو مولينا) Antonio Molina الاشـبيلي ، (وكونشـيتا بكـير) Conchita Piquer البلنسـية .

ان هذه الموسيقى التي يرسـلها الفنـان الاسباني اليوم على قيثـارته ،

---

(١) حقق هذه الوفاة ـ الاستاذ الزركلي (خير الدين) في الاعـلام ج٥ ط٢ ص١٨٠ .

أتحسبها من الطابع الاوربي ؟ لا أظن !! بل هي الآلة التي حملها العرب وحسنوها واستعملوها منذ عصورهم الزاهرة حتى عصرنا الحاضر .

والصنوج التي تدق بأكف الراقصات الاندلسيات أمثال Rosario (روساريو) أتراها وليدة الحضارة الاوربية ؟ لا ، انها هي كذلك من الآت الطرب عند العرب كالمزمار ، والعود ، والشبابة ، والكمان ، والدف ، والقيثارة ، والقانون ، والطنبور ، والطارة ، والبوق ، والطبل ، والزمر ، والمجوز ، والناي .

ان الغناء والموسيقى الاندلسية ، تولدت في اسبانية العربية عندما كانت ترفرف طيور النعمة والهناء على سهول (قرطبة)[1] وتلال (غرناطة) ومنحدرات (اشبيلية) وبساتين (بلنسية) ومرافق (مالقة) . وكان القوم يعيشون في الجنة الارضية التي وصفها شاعرهم بقولها :-

حبذا أندلس من بلد لم تزل تنتج لي كل سرور
طائر شاد وظل وارف ومياه سائحات وقصور

ومن الطبيعي أن يلتذ القوم بالاطايب المبثوثة لديهم ، وينعموا بالنعيم المقدم اليهم باطباق الذهب والفضة على موائد النعمة الوارفة الظلال . بأيدي حسان نواعم ، بياضهن يتحدى أزاهير الزنبق المتفتح في اطلالة الربيع البكر !! ونعومتهن تزري بالحرير الدمشقي الاصيل . ذوات شعور فاحمة طويلة ، ملتفة كاشجار غابة عذراء . وعيون سود حالمة صافية معبرة أخذت سوادها من معدن الاثمد الغرناطي . أهدابها كظل شجيرات الريحان والورد ، في

---

(١) لا تزال هذه الاسماء في اسبانيا محرفة قليلا عما وردت في المصادر العربية :

قرطبة :	Cordova
اشبيلية :	Sevilla
غرناطة :	Granada
مالقه :	Malaga
بلنيسه :	Valancia

مرابع تلك البلاد في شهر نيسان ، وملابسهن كذيل الطاووس المختال في حديقة من الزهور • وهذه الخمرة الجارية في كل اناء ، المالئة كل قدح ، المروية كل ظمأ ، أتراها لم تساعد على خلق ذلك الجو من الانس والطرب؟ انها بنت الكرمة المزروعة في سهول البلاد وروابيها ، لا يخلو منها منزل ، ولا تفرغ منها خابية • جعلت الناس في شغل عن ارتشاف ماء الينابيع ، في مأكلهم ومشاربهم ، وفي غدوهم وآصالهم ، يحملونها معهم في اسفارهم ، وحطهم وترحالهم •

والطبيعة بأجمعها من هدبل الحمائم ، ومن نغمات الشحارير ، ومن خفقات الاوراق ومن تهدر ماء الينابيع ، ومن دوي الانهيار الطافية ، ومن عطر البنفسج الفواح على مشارف البيوت ، وفي جنائن القصور ، أتراها لم تخلق الجو الشاعري ، وتبعث على خفة الارواح ، وسلامة القلوب ، وبساطة النفس •

هذه المغريات الطبيعية المتنوعة ، دفعت بابناء جنوب اسبانيا خاصة في أن يميلوا الى الراحة ، ويخلدوا الى الملذات ، ويرغبوا في المشارب التي لا تلهيهم عنها شدة الالم ، أو تعاسة الظروف ، أو بعد المنازل •

× × ×

وأنت اذا استمعت (الاغاني الاندلسية) وموسيقاها اليوم ، كأنك تسمع أغاني الضيعة في لبنان ، وأغاني الريف في العراق ، ومواليا مصر ، وعتابا سورية • حتى لتحسب نفسك تسير في شوارع بغداد عند الامسيات تستمع الى مغن بارع ، وفي سهرات زحلة في ظلال البردوني ، عندما تنتشر الموائد وتمتلىء الكؤوس ويشع النور !! أو في ظلال أشجار الغوطة الفيحاء بدمشق في أصائل الاعياد ، وفي مقدم الربيع •

والذي يلفت نظرك ، هو ان هذا الغناء المصحوب بالرقص المعبر عن خلجات القلوب ، يؤلف حلقات ، حلقات ، تديره راقصة ومغنية بارعة يصاحبها أحيانا شاب ممتهن ، فتنشد (اللازمة) مع نقرات (الصنجات)

« الطقاشـات » – Castanuelos أو لهات العزف والقيثار وعلى هـذا النغم يهتز فيها كل عضـو بحركة عصبية ، وبمظاهر نفسـانية • معبرة عنهـا كل جارحة منها • وجوقها تردد معها ما أنشدته في المطلع ، والنـاس يصرخون بقولهم Olé, Olé, Olé • ولكن أتحسب هذا غريب عنك في ماضي تاريخ اخوانك العرب ، في هذه المرابع السندسية ؟ • لا اخالك تجيب بالنفي ؟

فالغناء والموسيقى الاندلسيان ، هما مزيج شرقي وغربي ،كان الفضل يعود للشرق يوم أن حمل (زرياب) طرقه وفنونه الى اسبانيا العربية ، وهو تلميذ النابغة العبـاسي (اسحق الموصلي) نديم الملوك ، وباعث احساسـات اللذة والطرب في نفوسهم •

ولكن من هو هذا البارع الفنان (زرياب) وكيف وصل الى هذه البلاد الساحقة البعد عن وطنه العراق ، مع طول المسافات ، ومشقة الطرق في زمنه وعصره !!؟؟

× × ×

(زرياب)(١) لقب له ، ومعنـاه الذهب الخـالص أي التبر ، اسـمه (علي بن نافع) من موالي المهدي ، ومن تلاميذ اسحق الموصلي(١) •

ولد هذا النابغة من طبقات الشـعب الدنيا وعاش في أحضـان الفاقة ، وتربى تحت سقف البؤس ، ونام فوق بساط الحرمان ، وداعبت عيناه أحلام الوسن • تناولت يداه اللقمة من حراح الكدح ، وتطعم من مرارة العيش • ومع كل هذه المعاكسات الزمنية تراه تحدى الزمان ، وصارع الفقر ، وتحارب مع الالم ، ووقف صامدا كالطود يغالب التيار ، ثم أعطاه النظام الذي عاش فيه العبودية والاسار فأصبح تابعا للسـادة والاشراف يخدمهم في ظلمة الليـالي

---

(١) في تفسير كلمة (زرياب) راجع هامش الاعـلام ج٥ ط٢ ص١٨٠ وهي كلمة أصلها (زرآب) فارسية (ماء الذهب) – وليس كما ذكر تشبيها له بطـائر غرد اسود •

(١) يذكر صاحب (دائرة المعارف) البستاني • ان استاذه اسحق • ونفح الطيب يشير عن ابراهيم بن اسحق – والارجح هو الاول •

الطوال يؤانس نفوسهم ، ويهدهد أجسامهم ، ويقدم لهم الشراب العذب ، في كؤوسهم الملأى الى أفواههم الندبة • كل هذا وهو صابر محتسب بهج النفس ، عذب اللفظ ، رقيق الشعور ، لذيذ النغم ، ساحر الصوت ، أعطته الطبيعة كنزا لا ينفذ من الذكاء ، وعقلا لا يجارى من الفطنة ، ونفسا لاتقارن من السماحة والتضحية ! •

دراسته وسفره الى الاندلس

درس علوم الموسيقى الاولية على استاذه (اسحق الموصلي) فكان يلتقط الحروف التقاطا ، فتثبت في نفسه وذاكرته ، كما تثبت الصور على شاشة اللوحة الفوتوغرافية ، وامتدت به الايام وهو يتلقى دروسه دون كلل أو ملل ، دون ضجر أو تذمر ، حتى قبضت أنامله الفتية على أوتار العود يداعب نغماتها الرواقص ، فتهتز له الافئدة طربا ، وتتمايل نشوة وحبورا •

فتولدت في نفس استاذه (اسحق) منه غيرة الانسان التي لا تتخلى عنه ، وخاصة اذا كان مزاحمه في الصنعة ممن يفوقونه براعة ومهارة •

والغيرة نار لاهبة تحرق نيرانها غرسات المودة ويذبل لهبها زهرات المحبة ، ويذهب لفحها بعطر الصداقة والقرابة ، بل هي منجل يحصده باسنانه الحادة قوائم ما أشادته الايام من أخلاص ، ويمزق صفحات ما ضمنه الاخاء من تضامن •

ولكن غيرة (اسحق الموصلي) لم تظهر الا في يوم دعا الرشيد مغنيه وموسيقاه لحفلة ساهرة كبرى تقام على شرف أحد الوفود • وكان من جملة البطانة (زرياب) فسأل الخليفة هذا الناشىء الجديد عن فن الغناء ، وهو ممن يتذوقونه ويلتذون به لكثرة ما لديه من الفنانين والمطربين ، والراقصات والمغنيات ، فأجاب الخليفة زرياب عن فنه وابداعه بقوله :ـ

« أحسن منه ما يحسن الناس وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا

يحسن الا عنـدك ، ولا يدخر الا لك ، فان أذنت غنيتـك ما لم تسمعه اذن قبلك »[١].

فأمر الرشيد باحضار عود استاذه اسحق فلم يأخذه زرياب وقال : لي عود نحته بيدي ، وأرهفته باحـكامي ، لا أرتضي غـيره . فأمر به الرشيد وتأمله فوجده يشبه عود اسحق .

فقال : ما منعك أن تستعمل عود استاذك . فقال : ان كان مولاي يرغب في غناء استاذي غنيته بعوده ، وان كان يرغب في غنائي فلابد لي من عودي . وقد قربه (الرشيد) اليه وأحبه وفتح له بابا خاصا يستدعيه منـه متى أراد سماعه أو منادمته[١].

وبعد هـذه الجلسة الاولى ، التي سحر بهـا الرشـيد من فن زرياب البديع ، خرج من مجلس الخليفة وهو يحمل آمالا بيضاء لمستقبل حياته ، ولضمانة عيشه . الا ان لواذع النيرة مشت عمياء سريعة ، صماء جامدة في نفس اسحق . فاجتمع بتلميذه وهدده ، بأن يختار أحد أمرين اما أن يتوارى عن وجهه ووجه الرشيد ، ويمضي بعيـدا عن جو بغـداد ، والا فان له من السطوة ما يذهب بروح زرياب وما يملك ، واستحلفه بحق حقوق الرعاية والتعليم أن لا يدخل الى الرشيد مرة أخرى ، لكي لا يهدم مجدا بناه ابراهيم! ولا يطيح بمقدرات وبمكانة مغن قضى عمره ، وعاش اباؤه في قصور الرشيد وآل عباس المترفة !!

ففـكر زرياب بالامر وقرر الهجرة التي تبعـده عن جـو الدسـائس والغايات ، فسارت راحلته تطوي القفار ، وتعبر الانهار ، وتتحمل المشـاق

---

(١) عن أخبار (زرياب) يستحسن مراجعة (الاغاني) ط دار الكتب ج٤/٣٥٤ ونفح الطيب ج٢٢/٧٤٩ .
و (نظرات في تاريخ الادب الاندلسي) كامل كيـلاني ط١ ١٩٢٤ ص١١٢
و (الفكر الاندلسي) ترجمة الدكتور مؤنس ص٥٢
و (تاريخ الادب الاندلسي) للدكتور عباس ص٣٨
و (الشعر الاندلسي) للدكتور غومس ترجمة الدكتور مؤنس ص٣٣
(١) يراجع : دائرة المعارف ــ للبستاني ــ في مادة (زرياب) ط١

والمتاعب فمر بسورية ، وعرج على مصر ، ومنها الى المغرب وكاتب الخليفة الاموي بالاندلس يخبره بحاله وكان يومذاك أواخر حياة (الحكم بن هشام)[1] ولكن الخليفة توفي قبل أن يدخل المغني البلاد • فاستقدم ابنه الخليفة (عبد الرحمن بن الحكم)[1].

ويشير (ابن خلدون) في تاريخه « ان عبد الرحمن ركب بنفسه لتلقيه ، وبالغ في اكرامه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث صناعة الغناء بالاندلس وخلف أولادا ، فخلفه كبيرهم عبد الرحمن في صناعته وحظوته •

ومن بقايا زرياب بالاندلس وأعماله التي اخترعها[2] وخلد فيها :-

١ - زيادة الوتر الخامس على أوتار العود وجعله من اللون الاحمر ، وهو يقوم مقام النفس للجسد ، بعد أن كانت الاربع الاولى تمثل الطبائع البشرية •

٢ - استعمل مضرب العود من قوادم النسر بدلا من أعواد الخشب •

٣ - أدخل صنع الالحان على الطريقة العراقية - في الاندلس - بدلا من الطريقة الحجازية •

---

(٢) الحكم بن هشام - تولى الخلافة ١٨٠-٢٠٦هـ ، ٧٩٦-٨٢٢م هاجر في أواخر أيامه اثنان من مغني المشرق هما علون وزرقون - راجع (تاريخ الادب الاندلسي) للدكتور عباس ص٣٨

كما دخلت الاندلس من المغنيات العراقيات (قمر) جارية ابن الحجاج الاشبيلي سنة ٢٨٨هـ •

وراجع : أعلام النساء في باب القاف (قمر) - ج٢ والبيان المغرب ج٢ ص١٩٤ •

(١) عبد الرحمن الثاني بن الحكم بن هشام الاموي ٢٠٦-٢٣٨هـ ٨٢٢-٨٥٢م هو الذي فتح أبواب الاندلس على مصاريعها للثقافة والفن الشرقي وخاصة (البغدادي) منه واستعاض (بالتقاليد البغدادية) عن (التقاليد الشامية) في الامور الاجتماعية بفضل زرياب •

راجع : أدب الاندلس وتاريخها - ليفر بردفنال ط١ ١٩٥١ مصر ص٥-٧ •

(٢) يراجع : الفكر الاندلسي - لانجيل بلانسيه Angel Gonzalez Palancia ترجمة (مؤنس) ص٥٣ •

ومن عوائد أهل الاندلس التي سنها (زرياب) لهم :-

١ - استعمال الحلوى المعروفة عندنا اليوم (الزلابية) المحرفة عن (الزريابية) .

٢ - استعمال الادوات الزجاجية في الشراب عوضا عن أواني الذهب

٣ - استعماله غطاء السفرة على موائد الطعام .

٤ - استعماله الملابس البيض لفصل الصيف ، وجعله لكل فصل ما يلائمه من اللباس .

٥ - صار قانون الغناء عندهم أن يبدأ المغني بالنشيد ، ويتوسط بالبسيط ، وينتهي بالمحركات والاهازيج ، وكانت طرق تعليمه الغناء مبنية على مبادىء فلسفية طبيعية يسهل بها اقتباس التعليم وتلحين صوته ، وحركات فمه ، ومع ذلك فكان يمتحن صوت التلميذ بطرق يعرفها لكي يرى هل يوافق تعليمه أم لا ؟

٦ - أبدل أهل الاندلس رجالا ونساء فروق شعورهم التي كانوا يرسلونها الى الجبين بحيث جعلوها الى ما وراء اذانهم مع تقصيرها ، دون جباههم وتسويتها مع حواجبهم ، واسدالها الى أصداغهم[١].

ويختتم صاحب دائرة المعارف العلامة البستاني قوله :-

« وبالجملة فمآثره بالاندلس كثيرة ، وأخباره طويلة ، وشهرته وفضله أشهر من أن تفصل وقد حظى عند ملوك الاندلس الامويين الحظوة التامة ، وحصل الجاه العظيم ، والثروة الجليلة ، والسعادة السابغة ، وتزوج بنته أحد وزرائهم[٢] .

---

(١) يراجع : دائرة المعارف للبستاني ص٢٢١-٢٢٣ ط١ .

(٢) خصص لهم (عبد الرحمن الثاني) عطاء قدره مائتا دينار في الشهر . وقرر له ثلاثة آلاف دينار في كل من العيدين مع ٢٠٠ مد من الشعير و٢٠٠ مد من القمح - وقصور وهبات وحدائق قيمتها أربعون الف دينار راجع : الفكر الاندلسي ص٥٣ .

وكان (زرياب) شاعرا مجيدا . يحفظ عشرة الاف مقطوعة من الاغاني بألحانها . (هذا ما ذكره) المستشرق الاسباني بلانثيا في (الفكر الاندلسي) ص٥٤ .

وكان لاولاده المنزلة العليا في تلك الاقطار . وقد خلف ثمانية صبيان وبنتين ، كلهم تعلموا الغناء ومهروا فيه .

× × ×

هذا هو (زرياب) حامل لواء الغناء والموسيقى العربية في الاندلس ترك بلاده وهجرها اذ كما قال السيد المسيح : « لا كرامة لنبي في وطنه » .

واذا قيضت لك الاوقات أن تزور اسبانيا الجميلة ، وغياض الاندلس الساحرة فيها ، وعرجت على دور الفن والغناء ، أو استمعت الى الراديو وهو يرسل انغامه ، أو شاهدت الافلام السينمائية الاسبانية الحديثة ، فسترى ما يذكرك بهذا المطرب . وبفن الغناء والموسيقى العربيين . التي بذرها في الشرق (آل الموصلي) ونمى غرسهما في الغرب ورعاهما (زرياب) . وكأنك تعيش في جو بغداد[١] . وسحر الشرق وبدائعه . حيث حلقات الجواري الحسان بألوان ملابسهن الزاهية . تشبها بالطبيعة وما فيها من ألوان ، وحيث الازجال والمواليا والعتابا ، وأبو الزلف ، والقصيد . تستقر في أعماق قلبك مصورة لك أحلامك بلغتها الاسبانية العربية الرقيقة ، في جو من الليالي الملاح ، مع أصحابك ذوي الاسمار اللطاف .

وحينذاك تعترف بأن اخوانك أبناء العروبة السالفين ، لم يقصروا في هذه الميادين كما انهم لم يتأخروا عن بقية المجالات الاخرى التي تجعل المنصفين من العلماء والباحثين يعترفون لهم بفنون الابتكار ، وبطرق التجديد والابداع !!

ولو ان لهم من يوجههم ، وينظم أحوالهم ويكشف بذور الذكاء والعبقرية فيهم ، لرأيتهم كيف يندفعون سراعا الى مراقي الكمال ، والى مواطن الخلق والتجديد .

---

(١) في مدينة برشلونة Barcelona باسبانيا دار للطرب الاندلسي باسم (بغداد) Bagdad وأخرى (ليالي الاندلس) .

أهم مصادر البحث

١ ـ نفح الطيب ج٢ ط١ ١٩٤٩ نشر محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ·

٢ ـ الاعلام ـ للزركلي ط٢/١٩٥٩ ـ ج٥ ·

٣ ـ دائرة المعارف ـ للبستاني ط١ باب (زرياب) ·

٤ ـ الفكر الاندلسي ـ لانجيل بلانثيا ـ ترجمة الدكتور مؤنس ١٩٥٥ مصر ·

٥ ـ تاريخ الادب الاندلسي ـ (عصر سيادة قرطبة) ـ للدكتور احسان عباس ط دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٠ ·

٦ ـ محاضرات المستشرق (ليفي بروفنسال) ـ أدب الاندلس وتاريخها ـ ترجمة محمد عبد الهادي شعيره ـ مصر ١٩٥١ ·

٧ ـ نظرات في تاريخ الادب الاندلسي ـ (محاضرات) كامل كيلاني ط١ ١٩٢٤ مصر ·

٨ ـ الشعر الاندلسي ـ للدكتور غرسيا غومز A. Garcia Gomez ترجمة الدكتور مؤنس ط٢ ١٩٥٦ مصر ـ القاهرة ·

٩ ـ البيان المغرب ـ لابن عذاري المراكشي ج٢ ط صادر بيروت ١٩٥٠ ·

الفهرست

BAGHDADI MEN-OF-LETTERS IN ANDALUSIA

By
Dr. M. JAMALUDDIN
College of Arts
University of Baghdad

Al - Nahdah - Book - shop

Baghdad
1962